آياتُ عِصْمَةِ أَهلِ البَيْتِ في تَفْسِيرِ الفَخْرِ الرَّازي

(دراسة نقدية)

ش.د. محمد جواد اسكندرلو نصرت علي جعفري

جامعة المصطفى العالمية

فحوى البحث

مع وجود الاعتقاد بعصمة الانبياء لدى المسلمين عامة، يرتبط اختلاف اعتقاد العصمة عند الأئمة من نسل الرسول محمدﷺ وبلزوم نسبتها اليهم، ويأتي ذلك متلازماً مع الاختلاف في تفسير الإمامة، وهل انها تحقق وظيفة الرسالة بلا وحي، أي أن الامام لايوحى اليه، كما هي عقيدة الامامية، وهل أن الإمامة أمر سياسي؟.

كما سيدرس البحث، بعد التعريف اللغوي والاصطلاحي، العصمة في القرآن والسُّنة ودليلها العقلي والنقلي، ثم يدرس مراتب العصمة ودرجاتها في قراءة المتكلمين والمفسرين والاقوال والوجوه المحتملة فيها. بعدها يعرّج البحث على راي الفخر الرازي في تفسيره (مفاتيح الغيب) في المسألة من خلال تعرّضه للايات التي نشير الى العصمة وملاحظاته النقدية عليها.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

القول بالعصمة يرجع للكتاب والسنّة وإنما دل عليها في حق العترة الطاهرة، كتاب الله وسنة رسوله. قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ وقال الرسول: «على مع الحق والحق مع على يدور معه كيفما دار» (حديث مستفيض، رواه الخطيب في تاريخه ١٤/ ٣٢١ والهيثمى في مجمعه ٧/ ٢٣٦ وغيرهما. ومن دار معه الحق كيفما دار، محال أن يعصى أو يخطيء، وقول الرسول في حق العترة: «إنى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى، ما إن تمسكتم بهما لن تظلوا أبداً» (حديث متواتر أخرجه مسلم في صحصحه، والدارمي في فضائل القرآن وأحمد في مسنده٢/ ١١٤ وغيرهم[١]) فاذا كانت العترة عِدل القرآن تصبح معصومة كالكتاب، لايخالف أحدهما الآخر، وليس القول بعصمة العترة بأعظم من القول بكون الصحابة كلهم عدولاً[٢].

فقول البعض بأن عقيدة العصمة تسربت إلى الشيعة من الفرس الذين نشأوا على تقديس الحاكم..[٣] غير وارد، لأنها إذا تسربت الى الشيعة من هذا الطريق فمن أين تسربت عصمة النبى الذى يقول بها أهل السنة جميعا في تبليغ الرسالة وبيان الشريعة، هل هذه الفكرة تسربت إلى أهل السنة من اليهود. لا والله إنها عقيدة اسلامية اقتبسها القوم من الكتاب والسنة[٤].

فعصمة الإنبياء مقبولة لدى المسلمين عامة، وإنما الخلاف حول العصمة في الإمامة عند غير هذا المذهب؛ واما لدى مذاهب أهل السنة فيؤيدها البعض

(١) حديث متواتر أخرجه مسلم في صحصحه، والدارمي في فضائل القرآن والامام أحمد في مسنده٢/ ١١٤ وغيرهم.

(٢) راجع بحوث في الملل والنحل، جعفر السبحانى، لجنة ادارة الحوزة العلمية (مؤسسة النشر الاسلامى) بقم المقدسة الطبعة الثانية ١٤١٥ هـ -ق. الجزء٦ ص٢٨٨.

(٣) الدكتور نبيه حجاب: مظاهر الشعوبية في الأب العربى ٤٩٢ كما هو في هوية التشيع ١٦٦.

(٤) الشيخ السبحانى، الملل والنحل، ٦ص٢٨٨-٢٨٩.

كالرازى وغيره في الجملة وفي بعض اشاراتهم الصريحة، ولكن هناك اجماعاً لدى كافة الفرق الإسلامية لكرامة وأفضيلة العترة النبوية من غيرهم علمياً وعملياً، نلمحها في هذه الدراسة الموجزة مايرتبط بالعصمة عند الفريقين.

العصمة وخصائصها لغة واصطلاحا:

الأول: العصمة في اللغة:

قال ابن فارس: «عصم أصل واحد صحيح يدل على إمساك ومنع وملازمة، والمعنى في ذلك كله واحد، من ذلك. {العصمة} أن يعصم عبده من سوء مايقع فيه، واعتصم العبد بالله تعالى إذا تمنَع»[٥].

وقال الراغب: العصمة الإمساك والاعتصام الاستمساك، قال: «لاعاصم اليوم من أمر الله» أى لاشيء يعصم منه، وقال: «مالهم من الله من عاصم»، والاعتصام التمسك بالشيء، قال: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ {المفردات: كتاب العين، مادة عصم}.

العصمة إسم مصدر بمعنى تحقق المحفوظية والدفاع عنه. التحقيق في كلمات القرآن الكريم: حسن مصطفوى، ج ٨، ص١٥٤، تهران انتشارات وزارت فرهنگ وارشاد اسلامى، چاپ اول ١٣٩٥ق[٦].

العصمة في الاصطلاح:

قال الطباطبائى: العصمة في اصطلاح المتكلمين: «.. قوة تمنع الإنسان عن اقتراف المعصية، والوقوع في الخطأ»[٧].

وربما تعَرف أيضاً بأنها: «لطف يفعله الله في المكلف بحيث لايكون مع ذلك داع إلى ترك الطاعة، ولا إلى فعل المعصية مع قدرته على ذلك»[٨]؛ اضاف الشيخ على الربانى الگلبايگانى في تلخيصه لكتاب الشيخ السبحانى فكتب نقلاً

(٥) المقاييس لإبن فارس: ٤٠/ ٣٣١.

(٦) التحقيق في كلمات القرآن الكريم: حسن مصطفوى، ج ٨، ص١٥٤، تهران انتشارات وزارت فرهنگ وارشاد اسلامى، چاپ اول ١٣٩٥ق.

(٧) السيد محمد حسين الطباطبائى، الميزان ج٨، ص ١٤٢.

(٨) ارشاد الطالبين إلى نهج المسترشدين، ص٣١٠؛ راجع محاضرات الأستاذ الشيخ جعفر السبحانى، الالهيات على هدى الكتاب والسنه والعقل، بقلم الشيخ حسن محمد مكى العاملى، الجزء الثانى١٤٨، الطبعة الاولى١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

عن استاذه: «.. فالمشهورعند العدلية انها لطف لاداعى معه إلى ترك الطاعة ولا إلى ارتكاب المعصية مع القدرة عليها»[٩].

كما تحدث الشيخ المفيد عن العصمة بقوله: «العصمة من الله تعالى لحججه هى التوفيق واللطف والاعتصام من الحجج بهاعن الذنوب والغلط في دين الله تعالى والعصمة تفضل من الله تعالى على من علم أنه يتمسك بعصمته، والاعتصام في المعتصم وليست العصمة مانعة من القدرة على القبيح ولامضطرة للمعصوم إلى الحسن ولاملجئة له..»[١٠].

قال ابن أبى الحديد المعتزلى أيضاً: «وقال الأكثرون من أهل النظر: بل المعصوم مختار متمكن من المعصية والطاعة»[١١].

وقال السيد المرتضى: «اعلم أن العصمة هى اللطف الذى يفعله تعالى فيختار العبد عنده الامتناع من فعل القبيح..»[١٢].

قال ابو حنيفة حول العصمة كذلك: «اما في الاصطلاح هى حفظ الله انبياءه ورسله من النقائص وتخصيصهم بالكمالات النفسية والنصرة والثبات في الأمور وإنزال السكينة»[١٣].

فالعصمة الدرجة العالية من التقوى والعدالة كما أنها شهود خاص في العقل النظرى والاجتناب والاحتراز عن

(٩) محاضرات في الاليهات لسماحةالعلامة المحقق الشيخ جعفر السبحانى، الشيخ على الربانى الجلبايجانى، مؤسسة الامام الصادق ٢٨٠ نقلا عن شرح المقاصد: ٤/ ٣١٢ وإرشادالطالبين: ١٣٠.

(١٠) تصحيح الاعتقاد، أبوعبد الله محمد بن محمد بن النعمان العبكرى البغدادى (الشيخ المفيد) -المؤتمرالعلمى لإلفية الشيخ المفيد، مطبعة مهر، ايران، الطبعة الاولى، ١، ١٤١٣، ص ١٣٨.

(١١) شرح نهج البلاغه، ج٧، ص ٧و٨، دار احياء التراث -بيروت، ١٣٨٥ هـ-ق؛ راجع عبد الجبار القاضى -شرح اصول الخمسة بيروت داراحياء التراث الطبعه الأولى ص٥٢٩.

(١٢) على بن الحسين، مسائل المرتضى، بيروت مؤسسة البلاغ ط الاولى ١٤٢٢ه -ش تحقيق.. المحسن الكعبى ص١٨٨ -١٨٩.

(١٣) محمد بن عبد الرحمن، الخميس، اصول الدين عند الامام أبى حنيفة، المكتبة العربية السعودية، ١٤١٦ هـ ص ٤٨٠؛ نقلاً من فتح البارى.

المعصية تتعلق بالعقل العملي[١٤].

الثاني: العصمة في القرآن:

استعملت كلمة العصمة بجميع مشتقاتها اللغوية والعرفية في القرآن الكريم ١٣ مرة وفي الموارد التالية:

١. ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ﴾[سورة النساء: ١٧٥].

٢. ﴿وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[سورة آل عمران: ١٠١].

قال الشيخ الطوسي حول مفهوم الآية: «معناه يمتنع والعصم، المنع... ومنه قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾، أي لامانع و المعصم، لانه يمنع، والعصام، الجبل والسبب لانه يعتصم به[١٥].

٣. ﴿قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗ﴾[سورة الاحزاب: ١٧].

(١٤) همتايي قرآن واهل بيت، آيت الله جوادي آملي، نشر إسراء، چاپ سوم، تابستان١٣٩١هـ-ش، ص١٨٣.

(١٥) محمد بن حسن الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ١٤٠٩ ه ج٢، ص٥٤٣.

وقال الشيخ الطوسي: «أي يدفع عنكم قضاء الله ويمنعكم من الله»[١٦].

٤. ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾[سورة هود: ٤٣].

قال الشيخ الطوسي: «أي سأرجع مأوى من جبل يعصمني من الماء أي إلى جبل يمنعني منه والعصمة المنع من الآفة في الدين..» المصدرالسابق[١٧]. سنشير إلى آيات اخرى وتوضيحه في البحث عن آراء الإمام الرازي.

عصمة الانبياء:

ويقع البحث فيها في مقامات:

الاول: مراتب العصمة ودرجاتها.

الثاني: العصمة امر اختياري لا اضطراري (جبري).

الثالث: دلائل عصمة الانبياء عن الذنوب.

الرابع: دلائل عصمتهم في تبليغ الرسالة.

الخامس: دلائل عصمتهم عن الخطأ في تطبيق الشريعة والامور العادية.

(١٦) الشيخ الطوسي التبيان ج٥، ص٤٩٠.

(١٧) المصدر السابق.

أما الأول فنقول: للعصمة درجات ومراتب ثلاثة وهى:

العصمة عن المعصية والعصمة في تبليغ الرسالة و العصمة عن الخطأ في تطبيق الشريعة والامور الفردية والإجتماعية.

نقدم بحث العصمة عن الذنوب على النوعين الآخرين، فنقول: إن دافع العصمة وأسبابها اولاً نفسى وذاتى ترتبط بالتقوى والخوف من الله؛ حيث يمنع الانسان من نيّة المعصية فكيف لإرتكابها. ولذلك هى ملكة نفسانية راسخة في النفس لها آثارها ونتائجها المهمة والكبيرة الحقيقية والحقوقية... وهى غير اضطرارية في ذاتها.. يقول العلامة الطباطبائى: «إن ملكة العصمة لاتغير الطبيعة الإنسانية المختارة في أفعالها الإرادية ولاتخرجها إلى ساحة الإجبار والإضطرار... ويشهد على ذلك قوله سبحانه: ﴿وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٨٧ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[سورة الأنعام: ٨٧ -٨٨][18].

مع وجود الاختلاف حول العصمة بأنها اختيارية أوغيرها، ذهب البعض كالحسن البصرى بأن العصمة هي القدرة على الطاعة وعدم القدرة على المعصية[19]. ولكن في قراءة مذهب الامامية؛ العصمة تكون أمراً اختيارياً لاجبرياً يمكن أن يصدرالمعصية عن المعصوم ذاتا وعقلاً بمقتضى أنه حر وقادرعلى اقتراف المعاصى ولايمكن عرضاً وعادة لأن التربية الراسخة الذاتية والموضوعية في النفوس المهذبة الكريمة تبعدهم عن التخلف والدناءة فكيف عن مثل هذه النفوس الغيارى من مباشرة الذنوب التى هم ينأون وينهون عنه كما اشرنا وهى موهبة الهية لامفخرة يتفضل بها سبحانه على من يشاء من ذوى قابليات وارضيات صالحة كالمعصوم.

(١٨) الميزان ج١١ص١٧٩؛ راجع محاضرات الاستاذ الشيخ جعفر السبحانى، بقلم الشيخ حسن محمد مكى العاملى، ٢، السابق، ص١٦٣.

(١٩) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، للعلامة الحلى، المعلق جعفر السبحانى، الطبعة الاولى، ١٣٧٥ هـ -ش، نشر مؤسسة الامام الصادق، ص١٨٦.

قال الشيخ المفيد: «العصمة تفضل من الله على من علم أنه يتمسك بعصمته»[٢٠] وقال السيد المرتضى: «العصمة لطف الله الذى يفعله تعالى، فيختار العبد عنده الامتناع عن فعل القبيح»[٢١].

﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[سوة الاعراف: ١٩٦].

﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا ﴾[سورة الاحزاب: ١٧].

تنقسم العصمة على مطلقة ونسبية، والأولى: تختص بطبقة خاصة من الناس، والثانية: تعم كثيرا منهم. فكم من الناس يتورعون عن السرقه والقتل ونحو ذينك...[٢٢].

وثانياً: تحصل العصمة نتيجة العلم القطعى بعواقب المعاصى حيث يحصل في نفس الانسان وازع قوى يصد الانسان الواعى والعاقل عن ارتكابها وبل اقترابها وثالثاً الاحساس والانعطاف الروحى في شخصية الانسان المبدئى والمثالى (الكامل) الذى تنظم سلوكه وعلاقاته مع الله؛ يلمس عظمة الرب في فكرها وعملها وتنسجم مع الرسالة حيث تُجَسدها في كل حياتها وارتكاب المعصية تنافي غرض الهداية والتربية التى بعث النبى المعصوم لأجلها فيبتعد بالطبع والفطرة عن المعاصى؛ فضلا عن الرادع النفسى، فهناك تحذير شديد من الله على احباط عمل المعصوم وإنذاره من العذاب والعقاب ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾[سورة الحاقة: ٤٤ -٤٦].

ورابعاً: التنَزه عن المنفرات:

يقول الشيخ جعفر السبحانى أن مسؤولية هداية البشر في جميع النواحى ملقاة على عاتق الأنبياء، و أن العصمة- بمراتبها -إحدى الصفات اللازمة فيهم وهناك صفات اخرى يجب اتصاف الأنبياء بها تحصيلاً لغرضهم التى لولاها لما وصلوا إليه. ويجمعها التنزه عن كل مايجب تنَفر الناس، والتخلى بكل ما يوجب انجذابهم إليهم. ونحن نشير إلى بعض عناوين هذه الصفات مع تفسيره إجمالا:

(٢٠) تصحيح الاعتقاد ص٦١.
(٢١) أمالى المرتضى، ج١، ص١٤٨.
(٢٢) راجع محاضرات الاستاذ الشيخ السبحانى، الالهيات السابق، ص١٤٩.

١. **التنزه عن دناءة الآباء وعهر الأمهات:**

يقول الشيخ السبحانى: لاشك- أن القائد إذاكـان وليد بيت طيب طاهر، معروف بالعفاف والتقى، فإن ذلك يكون له تأثيره الخاص في انسياق الناس وميلهم إليه... وكذلك العكس.

٢. **سلامة الخلقة:**

ومن العوامل الباعثـة على اجتماع النـاس حـول القـائـد، سلامة بدنه من التشَوه ومن الأمـراض الذى يستوحش الناس معها من التعاطى مع المصاب بها، كالجذام والبرص.

٣. **كمال الخلق:**

إن لحسن الخلق وكماله تأثيراً خاصاً في جذب الناس، كما أن قساوة القلب وفظاظة المعاملة تأثيرا في تنفير الناس، فلهذا يلزم أن يكون الأنبياء في القمة من صفاء ولين الطبع..

قـال سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[سورة آل عمران: ١٥٩].

٤. **كمال العقل:**

كما أن للعقل سهماً وافـراً في حقل القيادة، فيجب أن يكونالأنبياء على درجة عالية من الزكاء والفطنة والرأى القاطع لايترددون في أمورهم بعد تبينها.

٥. **حسن السيرة:**

إن البسطـاء من الناس -وماأكثر وجودهم في الأمم -ينظرون إلى البواطن من خلال الظواهر، فيستكشفون سرائر الأنبياء من ظواهر افعالهم ولذلك يجب أن يكون الأنبياء في معاشراتهم مجانبين للأراذل والسفلة وأرباب الهزل، مبرئين عن الشاحنات والمشـاجرات التافهة وغير ذلك مما يسقط شأن القائد في أعين الناس[٢٣].

اما دلايل العصمة في تبليغ الرسالة:

ذهب جمهـور المتكلمين من السنة والشيعة إلـى عصمة الأنبيـاء في هذه المرحلة، ونسب إلى أبى بكر الباقلانى (المتـوفي ٢٠٣) تجويز الخطأ في إبلاغ الرسالة سهواً لاعمداً وقصداً.

قال صاحب المواقف: «أجمع أهل الملل والشرائع على عصمتهم عن تعمد

(٢٣) محاضرات... بقلم الشيخ حسن محمد مكى العاملى، ٢، ص١٩٧ -١٩٩.

الكذب فيما دلت المعجزة على صدقهم فيه، كدعوى الرسالة ومايبلغونه عن الله.

وفي جوازصدوره عنهم على سبيل السهو والنسيان خلاف، فمنعه الاستاذ وكثير من الأئمة، لدلالة المعجزة على صدقهم...[٢٤].

والعصمة (كما يقول السبحانى) في مرحلة التبليغ على وجهين:

أ. العصمة عن الكذب وهو داخل في العصمة عن المعصية التى تقدم البرهان عليها.

ب. العصمة عن الخطأ سهواً في تلقى الوحى وتحمله (وعيه) وأدائه.

وعلى هذا ركّز سماحة الشيخ السبحانى فأشار بقوله ذيل عنوان «القرآن وعصمة الأنبياء في تبليغ الرسالة»:

إن في الذكر الحكيم آيات تدل على مصونية النبى الأعظم في مجال تبليغ الرسالة بجوانبها المختلفه، من تلقى الوحى فوعيه وحفظه، إلى إبلاغه.

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ...﴾ [سورة البقرة: ٢١٢].

إن هذه الآية تصرح بأن من اهداف بعثة الأنبياء، القضاء بين الناس فيما اختلفوا فيه وليس المراد من القضاء الإ القضاء بالحق وهو فرع وصول الحق إلى القاضى بلا تغيير وتحريف[٢٥].

والآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [سورة النجم: ٣-٤].

فالآية تصرح بأن النبى لايتكلم بداعى الهوى والمراد منه إما جميع مايصدرعنه من القول في مجالات الحياة على اختلافها، كماهو مقتضى إطلاقها، أوخصوص مايحكيه عن الله سبحانه. وعلى كلا التقديرين فهى تدل على صيانته وعصمته في مجال تبليغ الرسالة: تلقى الوحى ووعيه وإبلاغه[٢٦].

اما العصمة عن الخطأ في تطبيق

(٢٤) المواقف، ص٣٥٨.

(٢٥) محاضرات، ٢، السابق، ص١٧٤.

(٢٦) السبحانى، السابق، ص ١٧٤ -١٧٥.

الشريعة والأمور العادية، فان صيانة النبى عن الخطأ والإشتباه في مجال تطبيق الشريعة والأمورالعادية الفردية المرتبطة بحياته الشخصية، مما طرح في علم الكلام.. فقد تطرق اليه القرآن، نذكر منها بعض ما أشارإليها استاذنا السبحانى حفظه الله في الآيات التالية:

الآية الأولى: قال سبحانه ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴾ [سورة النساء: ١٠٥].

وقال سبحانه أيضاً: ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴾ [سورة النساء: ١٠٥].

الاستدلال بهاتين الآيتين وغيرها وإن كان لايتوقف على معرفة أسباب نزولها، إلا أن الإحاطة بأسباب النزول توجب ظهورها في مفادها[٢٧]. وسنتطرق له في هذا الموضوع عند البحث عن قراءة فرق المسلمين في العصمة بآيات اخرى. ونشير اولاً الى حقيقة الإمامة في نظر الشيعة بأنها هى القيام بوظائف الرسول ﷺ بعد رحلته لأن الإمامة استمرار لوظائف الرسالة من غير أن يكون الإمام نبياً أو رسولاً يوحى إليه ولكن لابد من كونه معصوماً من الذنوب و متصفاً بنفس الأوصاف التى كانت للنبى. كما أن الرسول انسان مع أنه نبى يوحى إليه: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ [سورة فصلت: ٦].

﴿ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴾[سورة الإسراء: ٩٣].

فالحق هو أن الرسول مبعوث ومرسل ليقرأ ما أنزل إليه من الله ﴿ وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ١٠٥ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴾[سورة الاسراء: ١٠٥ -١٠٦].

فلانُفرط ولانفرِّط في الرسول محمد ﷺ ولكن البعض مثل الدكتور سروش المتأثر والمنفعل بالفلسفة الهرمنوطيقيا ونسبية المعرفة والدين يصرحون بأن القرآن هو

(٢٧) راجع محاضرات الشيخ السبحانى، ٢ السابق، ص١٨٠و١٨١.

كلام النبى مع أن محتواه الهى وصل النبى بدرجة معنوية رائعة يتلقى الوحى ويخلق الكلمات والعبارات من تلقاء نفسه وأن الوحى هو تجربة دينية عرفانية[٢٨] وهذه الفرية والمغالطة تنتهى إلى إنكارالخاتمية وانكاراعجاز الكلام الإلهى فيجعل الرسول معجزاً مكان القرآن مع أن النبى؛ هو قابل وقارىء وظرف ولافاعل وخالق؛ ليخلق النص القرانى العظيم بلسانه وكلامه وغيرالله غير قادر أن يخلق مثل القرآن الكريم ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم ﴾[سورة البقرة: ٢٣] فالنبى الرسول؛ انسان يوحى من الله إليه والقرآن منسوب إلى الله ومنصوب منه في اللفظ والمحتوى. ومن جانب آخرهناك من يعتقد بأن النبى فوق الإنسان؛ كالشيخ احمد الإحصائى ومن تبعه[٢٩].

أ. عصمة أهل البيت عليهم السلام:

... آية التطهير وعصمة أهل البيت:

أخبرالله سبحانه بأن أهل البيت- وهم محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين صلوات الله عليهم -معصومون من الذنوب في قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾[سورة الاحزاب: ٣٣].

شأن نزول الآية وما صنع الرسول بهذه المناسبة:

روى عبد الله بن جعفر بن أبى طالب قال[٣٠]:

(لَما نظر رسول الله إلى الرحمة هابطة، وقال: «ادعوا لى، ادعولى». فقالت صفية: من يارسول الله؟. قال: «أهل بيتى علي وفاطمة والحسن -والحسين». فجىء بهم. فألقى عليهم النبى صلى الله عليه وآله كساءه، ثم رفع يديه، ثم قال: «اللهم هولاء آلي فصَلِّ على محمد وآل محمد». وأنزل الله عز

(٢٨) بسط تجربه نبوى، عبد الكريم سروش، مؤسسه فرهنگى صراط، تهران، ١٣٧٨، ص٣-١٤.

(٢٩) راجع كتاب مراجعات في عصمة الأنبياء من منظور قرانى عبد السلام زين العابدين، الطبعة الرابعة ١٤٢٢هـ -٢٠٠١م ص٥٤٥ وبعده.

(٣٠) بمستدرك الصحيحين ٣/ ١٤٧.

وجل: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾.

وفي رواية أم -المؤمنين عائشة: أن الكساء كان -مرطاً مرحَّلاً (برد من برود اليمن) من شعرأسود»[٣١] وبتفسير الآية في تفسير ابن جرير والدر المنثور للسيوطى. وفي رواية الصحابى واثلة بن الأسقع: «إن رسول الله أدنى عليا وفاطمة وأجلس حسنا وحسينا كل واحد منهما على فخذه». الحديث[٣٢].

وفي رواية أم المؤمنين ام سلمة قالت: نزلت هذه في بيتى: «يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت» وفي البيت سبعة: جبرئيل ومكائيل عليهما السلام وعلى وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وأنا على باب البيت، قلت: يارسول الله ألست من أهل البيت؟. قال: إنك إلى خير. إنك من أزواج النبي»[٣٣].

إن هذه الآية، وما ورد عن رسول الله من قول وفعل في تفسيرها، تكفي دليلاً لإثبات عصمة أهل البيت[٣٤].

ومن الناحية العملية لم يسجل عن أئمة أهل البيت ما ينافي عصمتهم، على أن التاريخ الإسلامى دوَن من قبل علماء مدرسة الخلفاء، وغالباً مادونوا في كتب التاريخ مايجلبون به رضا الخلفاء مدى العصور، وكان الخلفاء مدى العصور جادين لإطفاء نور أهل البيت عليهم السلام خشية ميل المسلمين إليهم. ومبايعتهم بالخلافة، ولهذا السبب قتلوا منهم من قتلوا، وسجنوا منهم من سجنوا، وشردوا من شردوا، خاصة بنو أمية الذين أمروا بلعن علي عليه السلام في خطب صلاة الجمعة على منابر المسلمين، ولم ينج من عذابهم ومطاردتهم محبوأهل البيت وشيعتهم ومن اعتقد بإمامتهم...[٣٥].

(٣١) صحيح مسلم٧/ ١٣٠، باب فضائل أهل بيت النبى. ومستدرك الصحيحين ٣/ ١٤٧.

(٣٢) سنن البيهقى ٢/ ١٥٢، ورواية اخرى منه بمسند أحمد٤/ ١٠٧.

(٣٣) رواية ام سلمة في تفسير الآية بتفسير السيوطى ٥/ ١٩٨و١٩٩.

(٣٤) معالم المدرستين -خلاصة الاجزاء الثلاثة، العلامة السيد مرتضى العسكرى الطبعة والتاريخ: الاولى ١٤١٧ -١٩٩٧ ص١٣٩ -١٤١.

(٣٥) معالم المدرستين، السيد مرتضى العسكرى، السابق.

وما ذكرت عن العسكرى حول العصمة منقول عن طريق الفريقين ولذلك فاننا نركزعلى آراء الفريقين حول الموضوع، توضيحاً لا تفصيلاً. فنتطرق الى ما روي عن الطائفة الشيعية وبعدها عن الطائفة السنية ودلائلهم حول عصمة أهل البيت. نبدأ بتفصيل البحث والدراسة حول آية التطهير..

الأول: نظرية الشيخ السبحانى في دلالة الآية على العصمة:

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾.

مع وجود بعض ابهامات وإشكالات لدى البعض حول دلالة هذه الآية على عصمة أهل البيت، هناك مفاهيم تحتاج للدراسة والمعرفة كتحديد وتعيين مصداق أهل البيت؟. وتوضيح مسئلة السياق في الآية إذا كان المراد منهم غير نسائهﷺ وبأن الإرادة (إنما يريد الله) فيها هل تكوينية أوتشريعية؟.

أشار العلامة السبحانى إلى هذه الموضوعات بالدقة والتفصيل؛ نشير إلى خلاصة بعض ما تطرق إليها؛ فقال-مشيراً أولا إلى أن الإرادة في الآية الكريمة تكوينية لاتشريعية. لأن الإرادة التشريعية لاتختص بطائفة دون طائفة، بل هى تعم المكلفين عامة، كما يقول سبحانه، بعد أمره بالوضوء والتيمم عند فقدان الماء: ﴿ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[سورة المائدة: ٦].

ولكنه سبحانه إراد في هذه الآية المبحوث عنها، بجمع خاص، تجمعهم كلمة أهل البيت، وخصهم بالخطاب وقال: «عنكم أهل البيت»، أى لاغيركم، فتخصص الإرادة بجمع خاص على وجه المذكور، يمنع من تفسيرها بالتشريعية.

وثانياً: إن العناية البارزة في الآية، أقوى شاهد على أن المقصود هو التكوينية، لوضوح أن تعلق الإرادة التشريعية لايحتاج إلى العنايات التالية:

أ. إبتدأ سبحانه كلامه بلفظ الحصر، وقال «إنما» ولا معنى للحصر إذا كانت تشريعية، لعمومها لكل مكلف.

ب. عين تعالى متعلق إرادته بصورة

الإختصاص فقال: «أهل البيت» وهو منصوب على الإختصاص أى أخصكم أهل البيت[٣٦].

ج. قد بين متعلق إرادته بالتاكيد، وقال بعد قوله: «ليذهب عنكم الرجس»، «ليطهركم».

د. قد أكد بالإتيان بمصدره بعد الفعل، وقال: «ويطهركم تطهيراً»، ليكون أوفى في التاكيد.

ه. إنه سبحانه قد أتى بالمصدر نكرة، ليدل على الإكبار والإعجاب، أى تطهيراًعظيماً معجباً.

و. إن الآية في مقام المدح والثناء، فلوكانت الإرادة تشريعية، لما ناسب المدح والثناء..

فالإرادة في الآية الشريفة، نظير الإرادة الواردة في الآيات التالية:

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [سورة القصص: ٥].

﴿ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [سورة الانفال: ٧][٣٧].

ويشير الشيخ السبحانى في نهايات البحث إلى دلالة الآية على العصمة؛ مؤضحاً أن المراد من الرجس هوالقذارة المعنوية لا المادية.. لأن الرجس (حسب تعبير مقايسس اللغة) هو «القذر»[٣٨] وقد يعبر به (حسب تعبير السبحانى) عن الحرام، والفعل القبيح، والعذاب، واللعن، والكفر، قال الزجاج: «الرجس- في اللغة -كل ما استقذر من عمل، فبالغ الله في ذم أشياء وسماها رجساً».

وقال ابن الكلبى: «رجس من عمل الشيطان، أى مأثم»[٣٩] فعلى ضوء هذا البحث يفهم (حسب التعبيرالسبحانى) بأن المراد من الرجس في الآية، كل عمل قبيح عرفاً أوشرعاً، لا تقبله الطباع، ولذلك قال سبحانه بعد تلك اللفظة «ويطهركم تطهيراً» فليس المراد من التطهير

(٣٦) والإختصاص من أقسام المنادى، يقول ابن مالك: الإختصاص كنداء، دون يا كأيها الفتى بإثرارجونيا.

(٣٧) راجع: محاضرات.. ٢ ص٦٢٧ - ٦٣٠.

(٣٨) مقايسس اللغة، ج٢، ص ٤٩٠ ولسان العرب ج٦ ص٩٤.

(٣٩) لسان العرب، ج٦، ص٩٤.

إلا تطهيرهم من الرجس المعنوى الذى تعد المعاصى والمآثم من أظهر مصاديقه.

وقد ورد نظير الآية في حق السيدة مريم قال سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[سورة آل عمران: ٤٢].

فوضح -حسب السبحانى -أن العصمة شرط للإمام بالمعنى الذى يتبناه الإمامية في مجال الإمامة[٤٠]. وكذلك أهل بيت النبى الذين طهرهم الله تطهيراً. كما أكد عليه في الأحاديث المعتبرة لدى الشيعة «الأنبياء وأوصياؤهم لاذنوب لهم لأنهم معصومون مطهرون»[٤١].

وقال الإمام زين العابدين: «الإمام منا لايكون إلا معصوماً»[٤٢].

سنتطرق لتكميل الموضوع حول آية التطهير في دراستنا عن نظرية الرازي.

ب. عصمة الإمام:

اتفقت الامامية -كما أكد عليه الشيخ المفيد -على عصمة الإمام. قال الشيخ المفيد:

«اتفقت الإمامية على أن إمام الدين لايكون إلامعصوماً من الخلاف لله تعالى»[٤٣].

وقال أيضا: «.. إن الأئمة القائمين مقام الأنبياء في تنفيذ الأحكام وإقامة الحدود وحفظ الشرائع وتأديب الأنام، معصومون كعصمة الأنبياء»[٤٤].

وقال العلامة الحلى: «ذهبت الإمامية إلى أن الأئمة كالأنبياء في وجوب عصمتهم عن جميع القبائح والفواحش من الصغر إلى الموت عمداً وسهواً، لأنهم حفظة الشرع والقوامون به، حالهم في ذلك كحال النبي»[٤٥].

وقال الحلى ايضاً: «كل من يستحق

(٤٠) محاضرات الأستاذ السبحانى الاءلهيات، ج٢، ص٦٣٠ -٦٣١.
(٤١) بحار الانوار ج٢٥، ص١٩٩.
(٤٢) نفس المصدر، ص١٩٤.

(٤٣) أوائل المقالات، للشيخ المفيد: ٤٧، الطبعة الثانية.
(٤٤) نفس المصدر: ٧٤؛ لاحظ محاضرات في الإلهيات، تلخيص الشيخ على الربانى الجلبايجانى، مؤسسة الامام الصادق، ص٣٧٠.
(٤٥) دلائل الصدق: ٢الطبعة الأولى، القاهرة -١٣٩٦هـ -؛ راجع السبحانى، محاضرات... السابق.

الالطاف الخاصة التى هى العصمة بكسبه فهو تعالى يخصه بها ثم الإمام يجب أن يكون من تلك الطائفة لكانوا كلهم معصومين فتظهر أن الخلل في عدم عصمتهم جميعاً راجع عليهم لاعليه تعالى»[٤٦].

عصمة الإمام في القرآن:

الأول: آية ابتلاء إبراهيم.

قال سبحانه: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾[سورة البقرة: ١٢٤].

نشير إلى بعض الآيات وأولاً إلى آية «الابتلاء» ونبتدأ (في هذه الآية) بأن ما هوالمراد من الإمامة في الآية التى أنعم الله سبحانه بها على نبيه الخليل عليه السلام.

قال الشيخ جعفر السبحانى بأن الإمامة «هو القيادة الإلهية للمجتمع، فإن هناك مقامات ثلاثة:

- مقام النبوة، وهو منصب تحمل الوحى.
- مقام الرسالة، وهو منصب إبلاغه إلى الناس.

مقام الإمامة وهو منصب القيادة وتنفيذ الشريعة في المجتمع بقوة وقدرة.

ويعرب عن كون المراد من الإمامة في المقام هو المعنى الثالث، قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾[سورة النساء: ٥٤].

فالامامة أنعم بها الله سبحانه على الخليل وبعض ذريته، هى الملك العظيم الوارد في هذه الآية. وعلينا الفحص عن المراد من الملك العظيم، إذ عند ذلك يتضح أن مقام الأمامة، وراء النبوة والرسالة وإنماهو قيادة حكيمة وحكومة إلهية، يبلغ المجتمع بها إلى السعادة. والله سبحانه يوضح حقيقة هذا الملك في الآيات التالية:

١. ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾[سورة يوسف: ١٠١].

ومن المعلوم أن الملك الذى منَ به سبحانه على عبده يوسف، ليس النبوة، بل الحاكمية حيث صار أميناً مكيناً فى الأرض. فقوله: «وعلمنى من تأويل

(٤٦) كتاب الألفين، مؤسسة الأعلمى، البطعه الثالثة ١٤٠٢، تقديم حسين اعلمى، ص٥٧.

الأحاديث» أشارإلى نبوته، والملك أشار إلى سلطته وقدرته.

٢. ويقول سبحانه في داود عليه السلام: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾[سورة البقرة: ٢٥١]. ويقول سبحانه: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [سورة ص: ٢٠].

٣. ويحكى الله تعالى عن سليمان أنه قال: ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [سورة ص: ٣٥]

فملاحظة هذه الآيات يفسر لنا حقية الإمامة[٤٧].

ومنصب الإمامة لاينالها الظالمون ولوكان من ذرية إبراهيم، لأن شأن الإمامة كالنبوة تحتاج إلى العصمة ومن ارتكب ظلماً (إن الشرك لظلم عظيم) أوعبد صنما في يوم من ايام عمره ليست لهم –قابلية نيل مثل هذا المقام الكريم.

الثانى آية إطاعة أولى الأمر:

قال سبحانه:

﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ﴾

قال الشيخ جعفرالسبحانى: إنه تعالى أمر بطاعة أولى الأمرعلى وجه الإطلاق، ولم يقيده بشيء ومن البديهى أنه سبحانه لايرضى لعباده الكفر والعصيان ولوكان على سبيل الإطاعة عن شخص آخر، وعليه تكون طاعة اولوا الأمر فيما إذا أمروا بالعصيان محرماً.

فمقتضى الجمع بين هذين الأمرين– أن يكون اولى الأمر الذين وجبت إطاعتهم على وجه الإطلاق معصومين لاتصدر عنهم معصية مطلقاً، فيستكشف من إطلاق الأمر بالطاعة اشتمال المتعلق على خصوصية تصَده عن الأمر بغير الطاعة[٤٨].

عصمة العترة الطاهرة في قراءة أهل السنة:

تطرق علماء أهل السنة إلى فضائل

(٤٧) محاضرات الأستاذ الشيخ جعفر السبحانى الإلهيات، ٢ بقلم الشيخ حسن محمد مكى العاملى، ص٦٢١ –٦٢٣.

(٤٨) محاضرات الأستاذ الشيخ جعفر السبحانى الإلهيات، ٢ بقلم الشيخ حسن محمد مكى العاملى، ص ٣٧٣.

أهل البيت وعصمتهم من خلال القرآن كآية التطهير وآيات اخرى والروايات المعتبرة في اسانيدهم الصحيحة لدى الفريقين، نشير بإختصار فنقول بعونه سبحانه: يتجسد إثبات العصمة من خلال السنة والروايات الواردة عن النبى الأعظمﷺ وفي طليعتها حديث الثقلين، حيث قالﷺ: «انى تارك فيكم الثقلين (أو) فيكم خليفتين ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى كتاب الله وعترتى أهل بيتى، لن يفترقا حتى يرد على الحوض، فانظرواكيف تخلفونى فيها».

رواه من المفسرين أمثال الرازى والثعلبى والنسابورى والخازن؟. وابن كثير وغيرهم، مضافاً إلى عدد كبير وكثير من كتب التاريخ واللغة والسير والتراجم.

فمن حيث السند لاتوجد مشكلة، لأن الحديث متواتر وقطعى الصدور عن الرسول الأعظمﷺ[٤٩].

كما نرى من خلال الوقائع التاريخية والروايات التى وردت حول آية التطهير والعترة في حديث الثقلين هو نفس أهل البيت في آية التطهيروهم على وفاطمة والحسن والحسين ثم يتبعهم التسعة من وُلد الحسين وكلمة (لن) تؤكد على أنهما أى القرآن والعترة «لن يفترقا» فتثبت العصمة لأن القرآن معصوم لاريب فيه. ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِ﴾[سورة البقرة: ٢].

اقام متكلمو الشيعة والسنة، على عصمة الأنبياء، دلائل كثيرة، فذكر الطوسى ثلاثة، وأضاف إليها القوشجى دليلين آخرين، وذكر القوشجى تسعة أدلة. غير أن بعض ماذكروه ليس دليلاً عاماً بكل الأحيان والفترات، بل يختص بعصر النبوة. ومن ارادها فليلاحظ المواضع التالية: كشف المراد، ص٢١٧. شرح التجريد للقوشجى، ص٤٦٤. المواقف، ص٣٥٩ - ٣٦٠؛[٥٠].

وذكر: «.. حدثنى محمد بن المثنى،

(٤٩) راجع كنز العمال ج١، الترمذى احديث ٨٧٤، مسند احمد، الجزء الخامس، الطبرانى في الكبير الحديث ٨٧٣، الحاكم الجزء الثالث ص١٤٨، المراجعات، ص١٤-١٧.

(٥٠) راجع هامش محاضرات للشيخ السبحانى، ٢ ص ١٦١.

قال: قال رسول الله ثنا بكر بن بن يحيى بن زبان العنزى، قال: ثنا مندل، عن الأعمش، عن عطية، عن سعيد الخدرى، قل: قال رسول الله ﷺ: نزلت هذه الآية في خمسة: فيِّ، وفي علي، وحسن وحسين عليهم السلام، وفاطمة عليها السلام ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ﴾.. الآية[51].

عصمة اهل البيت عليهم السلام عند الفخر الرازي:

وندرس الموضوع في مقامين:

الأول: خصائص التفسير الكبير وأسلوب الرازى في تفسير الآيات.

والثاني، مفاهيم العصمة والاعتصام، عند الرازي.

نبدأ بالأول وهو خصائص التفسير الكبير وأسلوب الرازى في تفسير الآيات، فنقول:

كتب حسين علوى مهر تحت عنوان« خصائص التفسير الكبير للرازى» نشير إلى اسطر منها:

١. في هذا التفسير استطراد ونقل اقوال، ونقد وتشكيك.

٢. مناقشة آراء ونظريات الحكماء والفلاسفة والمتكلمين.

٣. التحقيق في القراءات، وحجيتها، واعراب الآيات وِفق القراءات المختلفة» و..[52] و يتطرق الكاتب[53] إلى موقف الرازى وأهل البيت **فيقول:**

«عند الرجوع إلى المواضع المختلفة في كتاب التفسير الكبير والآيات المرتبطة بأهل البيت يتضح بجلاء أن مؤلفه كسب قصب السبق من كثير من أهل السنة في قضية بيان فضائل أهل البيت فهو في الموارد التى يذكر فيها اسم علي ابن ابي طالب أوسائر أهل البيت يذكرهم

(٥١) جامع البيان في تفسير القرآن (تفسير الطبرى) ج٢٢، ص٥؛ راجع: چگونگى اثبات عصمت اهل بيت باتوجه به معناى رجس در آيه تطهير، قاسم حميدى، قم، سال ١٣٩٦، ص١٣.

(٥٢) المدخل إلى تاريخ التفسير والمفسرون، حسين علوى مهر، تعريب جعفر الخزاعى- حسين علوى مهر، الطبع الاول: ١٤٣٥هـ، ١٣٩٢ش، ناشر: مركزالمصطفى العالمى للترجمة والنشرص٣٢٣.

(٥٣) المدخل إلى تاريخ التفسير والمفسرون، حسين علوى مهر، تعريب جعفر الخزاعى- حسين علوى مهر، السابق، ص٣٢٣.

باحترام[٥٤]. ويعتبر الصلوة عليهم من الأدعية، ففي ذيل الآية الواردة في تفسيره ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ يعتبر في شأن النزول انها مرتبطة بعلى ابن أبى طالب في ليلة الهجرة ومبيته على فراش النبي»[٥٥].

وهناك توضيح من الشيخ جعفر السبحانى حول منهج الرازى في التفسير فقال: «إن فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازى (٥٤٤ -٦٠٤هـ) ممن فسر كثيراً من الآيات القرآنية على ضوء مذهبه ومنهجه الذى يتبعه وهومذهب الإمام الأشعرى، وهو أشعرى في العقيدة، شافعى في الفقه..»[٥٦].

الثاني: مفاهيم العصمة عند الرازى.

قال الرازي حول كلمة الاعتصام:

«والاعتصام في اللغة الاستمساك بالشيء و أصله من العصمة، و العصمة المنع في كلام العرب، و العاصم المانع، و اعتصم فلان بالشيء إذا تمسك بالشيء في منع نفسه من الوقوع في آفة، و منه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ [سورة يوسف: ٣٢][٥٧].

ويشير الرازى بعد نقل آية ١٠١ من سورة آل عمران: ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

فيقول: المقصود: إنه لما ذكر الوعيد أردفه بهذا الوعد، و المعنى: و من يتمسك بدين اللّه، و يجوز أن يكون حثاً لهم على الالتجاء إليه في دفع شرور الكفار..» فيكرر ما اشار اليها آنفاً..

قال قتادة: ذكر في الآية أمرين يمنعان عن الوقوع في الكفر أحدهما: تلاوة كتاب اللّه و الثاني: كون الرسول فيهم، أما الرسول ﷺ فقد مضى إلى رحمة اللّه، و أما الكتاب فباق على وجه الدهر.

و يتطرق الرازى إلى هذه الآية: ﴿ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ مشيراً إلى عقيدة الاشاعرة الجبرية: فقد احتج به أصحابنا على أن فعل العبد مخلوق

(٥٤) تفسير الكبير للامام الفخر الرازى، الطبعة الثالثة، ج ١٦، ص١٥٣.
(٥٥) التفسير الكبير، السابق ٣/ ٢٢٥.
(٥٦) المناهج التفسيرية في علوم القرآن، تأليف الفقيه المحقق الشيخ جعفر السبحانى، مؤسسة الإمام الصادق، الطبعة الثانية، ١٤٢٢هـ -ق، ص٩٦».
(٥٧) السابق، ص١٧٠.

للّه تعالى، قالوا: لأنه جعل اعتصامهم هداية من اللّه، فلما جعل ذلك الاعتصام فعلًا لهم و هداية من اللّه ثبت ما قلناه، أما المعتزلة فقد ذكروا فيه وجوهاً الأول: أن المراد بهذه الهداية الزيادة في الألطاف المرتبة على أداء الطاعات كما قال تعالى: ﴿ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾[سورة المائدة: ١٦].

.. و أن التقدير من يعتصم باللّه فنعم ما فعل فإنه إنما هدي إلى الصراط المستقيم ليفعل ذلك (و) من يعتصم باللّه فقد هدي إلى طريق الجنة»[٥٨].

وكذلك يشير الرازى الى قوله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾:

واعلم أنه تعالى لما أمرهم بالاتقاء عن المحظورات أمرهم بالتمسك بالاعتصام بما هو كالأصل لجميع الخيرات و الطاعات، و هو الاعتصام بحبل الله[٥٩].

وكذلك يشير في ادامة تفسير آية «الاعتصام بحبل اللّه» فيقول: روي عن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «أما إنها ستكون فتنة» قيل: فما المخرج منها؟. قال: «كتاب اللّه فيه نبأ من قبلكم و خبر من بعدكم و حكم ما بينكم و هو حبل اللّه المتين[٦٠].

و روي عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «هذا القرآن حبل اللّه».

و روي عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «إني تارك فيكم الثقلين، كتاب اللّه تعالى حبل ممدود من السماء إلى الأرض، و عترتي أهل بيتي»[٦١].

الثاني:

احتمالات الرازى في تحديد المصداق «لأولى الامر» من سورة النساء آية ٥٩: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾.

يقول الإمام الرازى في توضيحات حول هذه الآية فيقول: [في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى

(٥٨) التفسير الكبير، ج ٨، ص ١٧٠.
(٥٩) نفس المصدر، ص ١٧٣.
(٦٠) المصدر السابق.
(٦١) المصدر السابق.

﴿اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ اعلم أنه تعالى لما أمر الرعاة و الولاة بالعدل في الرعية أمر الرعية بطاعة الولاة فقال: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ» و لهذا قال علي بن أبي طالب عليه السلام: حق على الامام أن يحكم بما أنزل الله و يؤدي الأمانة، فإذا فعل ذلك فحق على الرعية أن يسمعوا و يطيعوا[٦٢].

وكذلك يقول الرازى في المسألة الثانية:

اعلم أن هذه الآية آية شريفة مشتملة على أكثر علم أصول الفقه، و ذلك لأن الفقهاء زعموا أن أصول الشريعة أربع: الكتاب و السنة و الإجماع و القياس، و هذه الآية مشتملة على تقرير هذه الأصول الأربعة بهذا الترتيب. أما الكتاب و السنة فقد وقعت الإشارة إليهما بقوله: أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ[٦٣].

فان قيل: أليس أن طاعة الرسول هي طاعة الله، فما معنى هذا العطف؟.

قلنا: قال القاضي (قاضى عبد الجبار الهمدانى -٤١٥ -٣٢٤هـ -(؟) له كتب في الكلام وكتاب طبقات المعتزلة): الفائدة في ذلك بيان الدلالتين، فالكتاب يدل على أمر الله، ثم نعلم منه أمر الرسول لا محالة، و السنة تدل على أمر الرسول، ثم نعلم منه أمر الله لا محالة، فثبت بما ذكرناه أن قوله: أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ يدل على وجوب متابعة الكتاب و السنة[٦٤].

ويشير الرازى في المسألة الثالثة في الاستدلال على اثبات العصمة بقوله:

اعلم أن قوله: وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ يدل عندنا على أن إجماع الأمة حجة، و الدليل على ذلك أن الله تعالى أمر بطاعة أولي الأمر على سبيل الجزم في هذه الآية و من أمر الله بطاعته على سبيل الجزم والقطع، لابد وأن يكون معصوماً عن الخطأ، إذ لو لم يكن معصوماً عن الخطأ كان بتقدير إقدامه على الخطأ يكون قد أمر الله بمتابعته، فيكون ذلك أمراً بفعل الخطأ، والخطأ لكونه خطأً منهياً عنه، فهذا يفضى إلى اجتماع الأمر والنهى في الفعل الواحد بالاعتبارالواحد، وأنه

(٦٢) التفسير الكبيرللرازى، ج١٠، ص١٤٣.
(٦٣) المصدر السابق.
(٦٤) المصدر السابق.

محال، فثبت أن الله تعالى أمر بطاعة أولى الأمر على سبيل الجزم، وثبت أن كل من أمر الله بطاعته على سبيل الجزم وجب أن يكون معصوماً من الخطأ، فثبت قطعاً أن أولى الأمر المذكور في هذه الآية لابد وأن يكون معصوماً أنا في زماننا هذا عاجزون عن معرفة الامام المعصوم، عاجزون عن الوصول إليهم، عاجزون عن استفادة الدين و العلم منهم، و إذا كان الأمر كذلك علمنا أن المعصوم الذي أمر اللّه المؤمنين بطاعته ليس بعضاً من أبعاض الأمة، و لا طائفة من طوائفهم. و لما بطل هذا وجب أن يكون ذلك المعصوم الذي هو المراد بقوله:

وَ أُولِي الْأَمْرِ أهل الحل و العقد من الأمة، و ذلك يوجب القطع بأن إجماع الأمة حجة»[٦٥].

ولما وقف الرازى على تمامية دلالة الآية على عصمة أولى الأمر، وهى لاتوافق مذهبه في الإمامة حاول أن يؤول الآية بما يوافقه مع أن الواجب على أمثاله أن يتعرف على «أولى الأمر» الذى استظهر من الآية كونهم معصومين، ولكنه زلت قدمه، ولم يستغل هذه الفكرة، ولم يستثمرها، فأخذ يتهرب من نتائج الفكرة بالقول بأننا عاجزون عن معرفة الإمام المعصوم، عاجزون عن الوصول إليه، عاجزون عن استفادة الدين والعلم منه، فإذا كان الأمر كذلك، فالمراد ليس بعضاً من أبعاض الأمة، بل المراد هو أهل الحل والعقد من الأمة[٦٦].

نقد وملاحظة:

نشير أولاً إلى الملاحظات التى طرحها العلامة المتتبع الشيخ جعفر السبحانى على الرازى وبعدها نشيرإلى نقد وملاحظتنا عليها.

قال الشيخ السبحانى في ملاحظته عليه:

بأنه إذا دلت الآية على عصمة اولى الأمر فيجب علينا التعرف عليهم، وإدعاء العجز، هروب من الحقيقة، فهل العجز يختص بزمانه أوكان يشمل زمان نزول الأية، لا أظن أن يقول الرازى

(٦٥) المصدر السابق ج١٠، ص١٤٤.

(٦٦) بحوث في الملل والنحل، تأليف جعفر السبحانى، ج٦، ص٢٩٢.

بالثانى فعليه أن يتعرف على المعصوم في زمان النبى وعصر نزول الآية، فبالتعرف عليهم، يعرف معصوم زمانه، حلقة بعد اخرى، ولايعقل أن يأمر الوحى الإلهى بطاعة معصوم ثم لايقوم بتعريفه حين النزول، فلوآمن الرازى بدلالة الآية على عصمة أولى الأمر، لكان عليه أن يؤمن بقيام الوحى الإلهى على تعريفهم بلسان النبى الأكرم.

إذلا معنى أن يأمر الله سبحانه بطاعة المعصوم، ولايقوم بتعريفه[٦٧].

ويستمر السبحـــانى في نقده حيث يقول:

«ثم إن تفسير «اولى الأمر» بأهل الحل والعقد، تفسير للغامض -حسب نظر الـرازى -بالأغمض إذهو ليس بأوضح من الأول»[٦٨].

ويشير العلامة السبحانى لنقـــــل كـلام ابـن تيمية حيث يـصرح بعصمة القراء... فيقول ابن التيمية: «.. فالقرآء معصومون في حفظ الـقـرآن وتبليغه، والمحدثون معصومون في حفظ الأحاديث وتبليغها، والفقهاء معصومون في الكلام والاستدلال»[٦٩].

يقول السبحانى في ملاحظاته على هذا القول:

«كيف يدعى العصمة لهذه الطوائف مع أنهم غارقون في الاختلاف في القراءة والتفسير، والحديث والأثـر، والحكـم والفتوى، والعقيدة والنظر. ولوأغمضنا عن ذلك فمـا الدليل على عصمة تلكم الطوائف خصوصاً على قول القائل بأن العصمة تسربت من اليهود إلى الأوساط الاسلامية[٧٠].

نـقـدنـا عـلـى الـــرازى في تـبـريـراتـه وتوجيهاته لإنكارالعصمة:

مقدمة:

مع أن لـلـرازى مواقف موضوعية وايجابية بالنسبة لأهل البيت (كما أشيرإليه في مدخل هذا العنوان ولاعجب منه. فهو

(٦٧) بـحـوث في المـلـل والـنـحـل، السابق، ص٢٩٢-٢٩٣.

(٦٨) السابق، ص٢٩٣.

(٦٩) ابن تيمية: منهاج الســنة كما في نظرية الامامية ١٢٠.

(٧٠) بحوث في الملل والنحل، للشيخ السبحانى، ج٦، ص ٢٩٢ -٢٩٣.

عالم وجامع للمعقول والمنقول؛ وله يد واسع في الأدب والكلام والفقه واصول الفقه كما أن له نقداً وهوامش على الفلسفة وغيرها)، أن نرى من الرازى مثل هذه المواقف العلمية والايجابية في بيان الحق وعدم كتمانه، لكن هو يثير الشك كثيراً في الأمور الواضحة فيغلب بعض الأحيان الجانب الجدلى في كلامه على الجانب الموضوعى (كما ذكرنا كلام أحد دارسى آثار المفسرين ومنهج الإمام الفخر الرازى في التفسير آنفاً) ربما نبع عن بعده الذاتى والتطرف أوالتفنن الفكرى الذى اشتهر فيه. مع أن اسلوب الجدل و التشكيك لايخدم الواقع لأن الهدف ليس هوالبحث والجدل في كل شيء بل الهدف الوصول إلى المعرفة والحقيقة وإلا سنقع في مستنقع الجدليين ومذهب السوفسطائيين الذين أنكروا الوجود البديهى حتى وجود انفسهم.

ولذلك لا نرى تبريراً وتوجيهاً منطقياًعلى إنكار وإنتقاص ما ذكره الإمام الرازى من احتمال عدم كون اولى الامر معصوماً بعد أن استدل به علميا والذى يؤيده النقل والعقل.

نشير هنا بإختصار إلى بعض الملاحظلات بعد نقل جُل احتمالاته التى هى صرف تفنن جدلى وذاتى، لا الموضوعى والعلمى.

قال الرازى في محاولاته لإنكار العصمة ونقل وجوه اخرى في ذيل الآية الكريمة نشيراليها:

أ. فان قيل: المفسرون ذكروا في أُولِي الْأَمْرِ وجوها أخرى سوى ما ذكرتم: أحدها: أن المراد من أولي الأمر الخلفاء الراشدون.

ب. و الثاني: المراد أمراء السرايا.

قال سعيد بن جبير: نزلت هذه الآية في عبد اللّه بن حذافة السهمي إذ بعثه النبي صلى الله عليه وآله أميرا على سرية.

وعن ابن عباس أنها نزلت في خالد بن الوليد بعثه النبي صلى الله عليه وآله أميرا على سرية و فيها عمار بن ياسر، فجرى بينهما اختلاف في شيء، فنزلت هذه الآية و أمر بطاعة أولي الأمر.

ج. و ثالثها: المراد العلماء الذين يفتون في الأحكام الشرعية و يعلمون الناس

دينهـم، و هذا رواية الثعلبي عن ابن عباس و قول الحسن و مجاهد و الضحاك.

ويشير الرازى إلى عقيدة الشيعة حول العصمة بقوله:

د. «رابعها: نقل عن الروافض أن المراد به الأئمة المعصومون، و لما كانت أقوال الأمة في تفسير هذه الآية محصورة في هذه الوجوه، و كان القول الذي نصرتموه خارجا عنها كان ذلك بإجماع الأمة باطلا»[٧١].

إن الرازى كما رئينا يشير إلى الاحتمالات والوجوه فيرد ويضعف بعض الاحتمالات كما يذهب إلى اثبات احتمالات أُخر و يركز على العلماء؛ مع أنهم ليسوا من الحكام وذوى القدرة والسلطة!. كما يركزعلى الاجماع ويشير الى طاعة الأمراء فلا يجب اطاعتهم إلا أن يكونوا مع الحق ولايظلمون وإن اطاعتهم مشروطة -حسب تعبير الرازى-و أنه امر تعالى الحكام باداء الأمانات ورعاية العدل (صفحات ١٤٤ -١٤٦) حتى يصل إلى الاحتمال الخامس فيقول:

«و خامسها: أن أعمال الأمراء و السلاطين موقوفة على فتاوى العلماء، و العلماء في الحقيقة أمراء الأمراء، فكان حمل لفظ أولي الأمر عليهم أولى، و أما حمل الآية على الأئمة المعصومين على ما تقوله الروافض ففي غاية البعد لوجوه: أحدها: ما ذكرناه أن طاعتهم مشروطة بمعرفتهم و قدرة الوصول إليهم، فلو أوجب علينا طاعتهم قبل معرفتهم كان هذا تكليف ما لا يطاق، و لو أوجب علينا طاعتهم إذا صرنا عارفين بهم و بمذاهبهم صارهذا الإيجاب مشروطا، و ظاهر قوله: أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ يقتضي الإطلاق، و أيضا ففي الآية ما يدفع هذا الاحتمال، و ذلك لأنه تعالى أمر بطاعة الرسول و طاعة أولي الأمر في لفظة واحدة، و هو قوله: وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ و اللفظة الواحدة لا يجوز أن تكون مطلقة و مشروطة معا، فلما كانت هذه اللفظة مطلقة في حق الرسول وجب أن

(٧١) التفسير الكبير، لفخر الرازى، ج١٠، ص١٤٤.

تكون مطلقة في حق أولي الأمر.»[٧٢].

نفهم واضحاً من اطلاق «اطيعو الله واطيعو الرسول». في جميع الأزمنة والأمكنة بأن اولى الأمر لايعصون الله- كما هوالأمر في المعصوم وكما أكد عليه الرازى في بيانه لإثباتها -وكذلك وردت أمر الطاعة في الآية بعد اطاعة الله ورسوله فلا يكون شرطاً ينافي الاطلاق لعدم العصيان لأن الله لايريد اطاعة الكافر والعاصى وغير العادل ولايجعلها واجبة ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾[سورة الزمر: ٧] فمقتضى الجمع (حسب السبحانى) بين هذين الامرين (وجوب اطاعة اولى الامر على وجه الاطلاق، وحرمة طاعتهم إذا أمر بالعصيان) أن يتصف اولو الامر الذين وجبت اطاعتهم على وجه الاطلاق، بخصوصية ذاتية وعناية ربانية، تصدهم عنالامربالمعصية والنهى عن الطاعة. وليس هذا إلا عبارة اخرى عن كونهم معصومين..»[٧٣].

إن الاطاعة مطلقة وليست مشروطة لامقيدة لأن المعرفة شرط تحصيل {كتحصيل الوضوء للصلاة) لاشرط حصول (كوجوب الإستطاعة للحج) فلابد من تحصيله من المكلف كوجوب المقدمة (مقدمة الواجب) بأنها عقلية لاشرعية، فلايقيد الأمر بالاطاعة... حتى اطاعة الرسولﷺ مع أنها واجبة[٧٤].

اضاف الرازى في ادامة احتمالاته:

«الثاني: أنه تعالى أمر بطاعة أولي الأمر، و أولو الأمر جمع، و عندهم لا يكون في الزمان إلا إمام واحد، و حمل الجمع على الفرد خلاف الظاهر».

نقول: إن «اولى الأمر» جمع وضعاً وصفةً (لأن معنى «أُولِي الْأَمْرِ معناه ذوو الأمر» و أولو جمع، و واحده ذو على غير القياس، كالنساء و الإبل و الخيل، كلها أسماء للجمع و لا واحد له في اللفظ[٧٥]) ولكن لاينافي اطلاقها شرعًا وبل عرفاً على الفرد... لأن فهم النص لاينحصر

(٧٢) المصدر السابق ص١٤٦.
(٧٣) الملل والنحل، للشيخ السبحانى، ج٦ ص٢٩١.

(٧٤) راجع تسنيم، ج١٩، آية جوادى آملى، نشرمركز إسراء، چاپ دوم زمستان ١٣٨٩، ص٢٤٩-٢٤٨.
(٧٥) تفسير الكبير للرازى، ج١٠، ص١٤٦.

باللغة ووالوضع فقط بل هناك فهم للعرف للنص الشرعي يعبر عنه السيد محمد باقر الصدر «بالفهم الإجتماعي للنص» في تفسير العصمة عند الامامية فيقدم هذا الفهم العرفي –الشرعي على اللغة؛ فيجوز اطلاق اولى الامر لكل فرد حدده الشارع. وأكد عليه محمد جواد مغنية في تفسيره حين قال: « أن الشرع في مداليل الألفاظ مقدم على العرف واللغة،»(٧٦) ولذلك يجوز اطلاق اولي الأمر على النبي ﷺ أيضا مع أنه فرد. فيطلق اولو الامر على كل من بيده سلطة وقدرة كما هو بالنسبة للنبي فيجب اطاعته. كما لا يجوز اطاعة حاكم ظالم لان الشرع نهى عن اطاعة ظالم وفاسق.

إن اولى الامر في عقيدة الشيعة هو الذى يحدده النص الدينى من شرايط وكفاءات، لا كون الفرد من أبناء رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام لأن كثيرا منهم فاقدون لهذه الشرائط، مضافاً عليها أن اولي الأمر محدود في زمن وموقع خاص يحدده المعصوم والإمام السابق بأمر من الله والرسول؛ مثلا لايكون على عليه السلام من اولى الامر في زمن رسول الله، كمالايكون الحسن والحسين من اولي الأمر في حياة امير المؤمنين وكذلك الحسين في زمن اخيه الحسن عليه السلام.

والنكتة المهمة في هذه الملاحظة على الرازى وهواجسه على إثبات أولي الامر وهو أنه لايثبت شرائط الاطاعة –كما أن الرازى يحاول اثباته –نظرا وعملا إلا في المعصوم لاغيره من الحكام أوالعلماء بصورة ومن احتمالات وتوجيهات طرحها الرازى، فردها او تثبَط واختلق فيها!. فالرازى يريد في النهاية أن يثبت الإطاعة لمن هو مستحق شرعا؟. لأن غير العادل وغيرالمعصوم لايجوز (او لايجب) اطاعتهم كحكام او علماء الجور و من سلك مسلكهم. فيبقى أن يكون المطاع عادلاً وعالما وبل كفوئاً وقادراًعلى القياده والإمامة ولمثل هذا المقام الذى يشبه النبوة لايحصل إلا من عصم نفسه عن المعصية والانحراف وحتى الخطأ الذى يسدِّده

(٧٦) تفسير الكاشف، لمحمد جواد مغنية، ج٣ الناشر دار الكتاب الاسلامى، الطبعة الثالثة، ١٤٢٦هـ –٢٠٠٥م، ص٢١٩.

الله تعالى... ولايمكن هذا إلا بعناية الله سبحانه وحتى أهل الحل والعقد لابد أن يكونوا كلهم عدول وثقاة، وإلا ينقض غرض الهداية والتعليم والتربية وتبليغ الدين. لان الناس يعتمدون بالعمل والكفائة القيادية، اكثر من الإدعاء والعناوين الفخيمة والدارجة.

اما الذى يقول الرازى عن الاجماع نسئل منه: أى اجماع ومجمعين تريدون؟. ونحن نعلم بأن حصول مثل هذا الاجماع (اجماع كل العدول والصالحين بمعناه الحقيقى) صعب. الإ أن نذهب ونلتجيء إلى الديموقراطية الليبرالية الغربية التى هى ليست اجماع، بل هى حكم الأقلية على الأغلبية. مع أن الديموقراطية المزعومة هى عقيدة ومنهج فكرى تخالف منهجنا الدينى الذى تبنها القرآن والسنة ونحن نعلم بأن مثل هذه الاكثرية البراغماتية تركز على العلمانية والقوانين الوضعية التى يتبناه الإنسان كمشرع مكان الله والقوانين الوحيانية.

يركز الرازى في احتمالاته على العلماء، او الحكام الذين ينفذون فتوى العلماء ولكن اكثر الحكام على طول التاريخ حارب العلما والمجتهدين كما حارب هولاء الحكام والسلاطين مخالفيهم وسيما اتباع أهل البيت.

الثالث: قال الرازى في ادامة نقدها على العصمة بقوله: «ثالثها: أنه (تعالى) قال: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ ولو كان المراد بأولي الأمر الامام المعصوم لوجب أن يقال: فان تنازعتم في شيء فردوه إلى الامام، فثبت أن الحق تفسير الآية بما ذكرناه»(٧٧).

اما الجواب عن هذا الإشكال يجب أن نقول:

أولا: إن هذا الإشكال لايختص بالتفسير الشيعى لهذه الآية، بل يرد على بقيه التفاسير أيضا، إذا أمعنا النظر قليلا.

وثانيا: لاشك في أن المراد من الاختلاف والتنازع في العبارة الحاضرة هو الاختلاف والتنازع في الأحكام، لا في المسائل المتعلقة بجزئيات الحكومة والقيادة الاسلامية، لإنه في هذه المسائل يجب اطاعة اولي الأمر (كماصرحت

(٧٧) المصدر السابق/ ١٤٦.

بذلك الجملة الاولى من الآية المبحوثة هنا)[٧٨] وعلى هذا فالمراد من الاختلاف هو الاختلاف في الأحكام والقوانين الكلية الاسلامية التى يعود أمر تشريعها إلى الله سبحانه ونبيهﷺ لأننا نعلم مجرد منفذ للأحكام الإلهية وليس مشرعاً، ولاناسخاً لشيء من تلك الأحكام، وانما عليه فقط أن يطبق الأحكام والأوامرالإلهية والسنة النبوية في حياة الأمة، ولهذا جاء في أحاديث أهل البيت إنه قالوا كذلك «إذا بلغكم عنا مايخالف كتاب الله وسنة نبيه، فاضربوه عرض الحائط ولاتقبلوه» أى يستحيل أن نقول مايخالف كتاب الله وسنة نبيه»[٧٩].

وعلى هذا فإن أول مرجع يرجع المسلمون إليه لحل خلافاتهم في الأحكام الاسلامية هو الله سبحانه والنبى الأكرم الذى يوحى إليه، وإذا ما بين الأئمة المعصومون أحكاماً، فإن تلك الأحكام ليست سوى اقتباس من كتاب الله، أو هى من العلوم التى وصلت إليهم من النبى الأكرم، وبهذا تتضح علة عدم ذكر أولى الأمر إلى جانب المرجع في حل الاختلاف في الأحكام المذكورة في هذاالجزء من الآية[٨٠].

سرد احتمالات غير لازمة للرازى حول الآية:

إن للرازى توضيحات وتطويلات بلاطائل حول تتمة الآية من احتمال حجية الاجماع وحجية القياس و رد القياس بدلايل عشرة[٨١] واشارته إلى قياس إبليس بقوله «خلقتنى من نار وخلقته من طين». لانحتاج إلى بيان هذه التفصيلات

(٧٨) الأمثل في تفسير كتاب الله لمنزل/ لسماحة الشيخ ناصر مكارم الشيرازى -الجزء الثالث، ١٣٨٤ هـ-ش -١٤٢٦ الطبعة الاولى (التصحيح الثالث) ايران/ قم/ ص١٨٠ -١٨١.

(٧٩) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل/ لسماحة الشيخ ناصر مكارم الشيرازى، السابق، ص١٨١.

(٨٠) المصدر السابق؛ يقول الشيخ جوادى آملى في تفسيره بأن المسئلة ليست فقهية بل هى لبيان حجية كلام الله ورسوله واولى الأمر؛ كالاستدلال بهذه الآية ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[سورة الإسراء: ١٥] فهى مسئلة اصولية. التسنيم، للآملى، ج١٩، ص ٢٦١.

(٨١) التسنيم، لآية الله آملى، ج١٩، السابق، ص٢٦٧.

ولكن نقول بكلمة واحدة إن القياس دليل ظنى والظن لايكون حجة كما لايكون سبيلاً للوحدة، بل يثير الخلاف فالعلاج هو الرد إلى الله والرسول وكذلك يتطرق الرازى إلى المباحث الفقهية والأصولية (اصوالفقه) وغيرها... ننقل نصها للقارى في الهامش ونحاول دراستها في متن الكتاب إن شاء الله تعالى في المستقبل {المسألة الرابعة: اعلم أن قوله: فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ يدل عندنا على أن القياس حجة، و الذي يدل على ذلك أن قوله: فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ إما أن يكون المراد فان اختلفتم في شيء حكمه منصوص عليه في الكتاب أو السنة أو الإجماع، أو المراد فان اختلفتم في شيء حكمه غير منصوص عليه في شيء من هذه الثلاثة، و الأول باطل لأن على ذلك التقدير وجب عليه طاعته فكان ذلك داخلا تحت قوله:

أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ و حينئذ يصير قوله: فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ إعادة لعين ما مضى، و إنه غير جائز. و إذا بطل هذا القسم تعين الثاني و هو أن المراد: فان تنازعتم في شيء حكمه غير مذكور في الكتاب و السنة و الإجماع، و إذا كان كذلك لم يكن المراد من قوله: فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ.

طلب حكمه من نصوص الكتاب و السنة. فوجب أن يكون المراد رد حكمه إلى الأحكام المنصوصة في الوقائع المشابهة له، و ذلك هو القياس، فثبت أن الآية دالة على الأمر بالقياس... (تفسير الكبير للرازى، ج١٠، ص١٤٦ -١٤٧).

المسألة الخامسة: هذه الآية دالة على أن الكتاب و السنة مقدمان على القياس مطلقا، فلا يجوز ترك العمل بهما بسبب القياس، و لا يجوز تخصيصهما بسبب القياس ألبتة، سواء كان القياس جليا أو خفيا، سواء كان ذلك النص مخصوصا قبل ذلك أم لا، و يدل عليه أنا بينا أن قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أمر بطاعة الكتاب و السنة، و هذا الأمر مطلق، فثبت أن متابعة الكتاب و السنة سواء حصل قياس يعارضهما أو يخصصهما أو لم يوجد واجبة، و مما يؤكد

ذلك وجوه أخرى: أحدها: أن كلمة «ان» على قول كثير من الناس للاشتراط، و على هذا المذهب كان قوله: فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ صريح في أنه لا يجوز العدول إلى القياس إلا عند فقدان الأصول. الثاني: أنه تعالى أخر ذكر القياس عن ذكر الأصول الثلاثة، و هذا مشعر بأن العمل به مؤخر عن الأصول الثلاثة. الثالث: أنه ﷺ اعتبر هذا الترتيب في قصة معاذ حيث أخر الاجتهاد عن الكتاب، و علق جوازه على عدم وجدان الكتاب و السنة بقوله: «فان لم تجد» الرابع: أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم حيث قال: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾[سورة البقرة: ٣٤] ثم إن إبليس لم يدفع هذا النص بالكلية، بل خصص نفسه عن ذلك العموم بقياس هو قوله: ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [سورة الأعراف: ١٢] ثم أجمع العقلاء على أنه جعل القياس مقدما على النص و صار بذلك السبب ملعونا، و هذا يدل على أن تخصيص النص بالقياس تقديم للقياس على النص و انه غير جائز.

الخامس: أن القرآن مقطوع في متنه لأنه ثبت بالتواتر، و القياس ليس كذلك، بل هو مظنون من جميع الجهات، و المقطوع راجح على المظنون. السادس: قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [سورة المائدة: ٤٥] و إذا وجدنا عموم الكتاب حاصلا في الواقعة ثم انا لا نحكم به بل حكمنا بالقياس لزم الدخول تحت هذا العموم. المسألة الثامنة: اعلم أن المنقول عن الرسول ﷺ اما القول و اما الفعل، أما القول فيجب إطاعته لقوله تعالى: ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ و أما الفعل فيجب على الأمة الاقتداء به إلا ما خصه الدليل. و ذلك لأنا بينا ان قوله: أَطِيعُوا يدل على أن أوامر اللَّه للوجوب ثم انه تعالى قال في آية أخرى في صفة محمد عليه الصلاة و السلام: فَاتَّبِعُوهُ و هذا أمر، فوجب أن يكون للوجوب، فثبت أن متابعته واجبة، و المتابعة عبارة عن الإتيان بمثل فعل الغير لأجل أن ذلك الغير فعله، فثبت ان قوله: أَطِيعُوا اللَّهَ يوجب الاقتداء بالرسول في كل أفعاله، و قوله: وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ يوجب الاقتداء به في جميع

أقواله، و لا شك أنها أصلان معتبران في الشريعة. (التفسير الكبيرللرازى، ج١٠، ١٤٩) المسألة التاسعة: اعلم أن ظاهر الأمر و ان كان في أصل الوضع لا يفيد التكرار و لا الفور إلا أنه في عرف الشرع يدل عليه، و يدل عليه وجوه: الأول: ان قوله: أَطِيعُوا اللَّهَ يصح منه استثناء أي وقت كان، و حكم الاستثناء إخراج ما لولاه لدخل، فوجب أن يكون قوله: أَطِيعُوا اللَّهَ متناولا لكل الأوقات، و ذلك يقتضي التكرار، و التكرار يقتضي الفور. الثاني: انه لو لم يفد ذلك لصارت الآية مجملة، لأن الوقت المخصوص و الكيفية المخصوصة غير مذكورة، أما لو حملناه على العموم كانت الآية مبينة، و حمل كلام اللَّه على الوجه الذي يكون مبينا أولى من حمله على الوجه الذي به يصير مجملا مجهولا، أقصى ما في الباب أنه يدخله التخصيص، و التخصيص خير من الإجمال. الثالث: ان قوله: أَطِيعُوا اللَّهَ أضاف لفظ الطاعة إلى لفظ اللَّه، فهذا يقتضي أن وجوب الطاعة علينا له إنما كان لكوننا عبيدا له و لكونه إلها، فثبت من هذا الوجه ان المنشأ لوجوب الطاعة هو العبودية و الربوبية، و ذلك يقتضي دوام وجوب الطاعة على جميع المكلفين إلى قيام القيامة/ و هذا أصل معتبر في الشرع.

المسألة العاشرة: انه قال: أَطِيعُوا اللَّهَ فأفرده في الذكر، ثم قال: وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ و هذا تعليم من اللَّه سبحانه لهذا الأدب، و هو أن لا يجمعوا في الذكر بين اسمه سبحانه و بين اسم غيره، و أما إذا آل الأمر إلى المخلوقين فيجوز ذلك، بدليل انه قال: وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ و هذا تعليم لهذا الأدب.

المسألة الحادية عشرة: قد دللنا على أن قوله: وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ يدل على أن الإجماع حجة فنقول:

كما أنه دل على هذا الأصل فكذلك دل على مسائل كثيرة من فروع القول بالإجماع، و نحن نذكر بعضها:

الفرع الأول: مذهبنا أن الإجماع لا ينعقد إلا بقول العلماء الذين يمكنهم استنباط أحكام اللَّه من نصوص الكتاب و السنة، و هؤلاء هم المسمون بأهل الحل

و العقد في كتب أصول الفقه نقول: الآية دالة عليه لأنه تعالى أوجب طاعة أولي الأمر، و الذين لهم الأمر و النهي في الشرع ليس إلا هذا الصنف من العلماء، لأن المتكلم الذي لا معرفة له بكيفية استنباط الأحكام من النصوص لا اعتبار بأمره و نهيه، و كذلك المفسر و المحدث الذي لا قدرة له على استنباط الأحكام من القرآن و الحديث، فدل على ما ذكرناه، فلما دلت الآية على أن اجماع أولي الأمر حجة علمنا دلالة الآية على أنه ينعقد الإجماع بمجرد قول هذه الطائفة من العلماء. و أما دلالة الآية على أن العامي غير داخل فيه فظاهر، لأنه من الظاهر أنهم ليسوا من أولي الأمر.

الفرع الثاني: اختلفوا في أن الإجماع الحاصل عقيب الخلاف هل هو حجة؟ و الأصح أنه حجة، و الدليل عليه هذه الآية، و ذلك لأنا بينا أن قوله: وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ يقتضي وجوب طاعة جملة أهل الحل و العقد من الأمة، و هذا يدخل فيه ما حصل بعد الخلاف و ما لم يكن كذلك، فوجب أن يكون الكل حجة.

الفرع الثالث: اختلفوا في أن انقراض أهل العصر هل هو شرط؟. و الأصح أنه ليس بشرط، و الدليل عليه هذه الآية، و ذلك لأنها تدل على وجوب طاعة المجمعين، و ذلك يدخل فيه ما إذا انقرض العصر و ما إذا لم ينقرض.

الفرع الرابع: دلت الآية على أن العبرة بإجماع المؤمنين لأنه تعالى قال في أول الآية: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ثم قال: وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فدل هذا على أن العبرة بإجماع المؤمنين، فأما سائر الفرق الذين يشك في إيمانهم فلا عبرة بهم.

المسألة الثانية عشرة: ذكرنا أن قوله: فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ يدل على صحة العمل بالقياس، فنقول: كما أن هذه الآية دلت على هذا الأصل، فكذلك دلت على مسائل كثيرة من فروع القول بالقياس، و نحن نذكر بعضها:

الفرع الأول: قد ذكرنا أن قوله: فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ معناه فردوه إلى واقعة بين اللَّه حكمها، و لا بد و أن يكون المراد فردوها إلى واقعة تشبهها، إذ لو كان

المراد بردها ردها إلى واقعة تخالفها في الصورة و الصفة، فحينئذ لم يكن ردها إلى بعض الصور أولى من ردها إلى الباقي، و حينئذ يتعذر الرد، فعلمنا أنه لا بد و أن يكون المراد: فردوها إلى واقعة تشبهها في الصورة و الصفة. ثم إن هذا المعنى الذي قلناه يؤكد بالخبر و الأثر، أما الخبر فإنهم لما سألوه ﷺ عن قبلة الصائم فقال عليه الصلاة و السلام: «أرأيت لو تمضمضت» يعني المضمضة مقدمة الأكل، كما أن القُبلة مقدمة الجماع، فكما أن تلك المضمضة لم تنقض الصوم، فكذا القبلة. ولما سألته الخثعمية عن الحج فقال عليه الصلاة و السلام: أرأيت لو كان على أبيك دين فقضيته هل يجزى فقالت نعم: قال عليه الصلاة و السلام: فدين اللَّه أحق بالقضاء».

و أما الأثر فما روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: اعرف الأشباه و النظائر و قس الأمور برأيك، فدل مجموع ما ذكرناه من دلالة هذه الآية و دلالة الخبر و دلالة الأثر على أن قوله:

فَرُدُّوهُ أمر برد الشيء إلى شبيهة، و إذا ثبت هذا فقد جعل اللَّه المشابهة في الصورة و الصفة دليلا على أن الحكم في غير محل النص مشابه للحكم في محل النص، و هذا هو الذي يسميه الشافعي رحمه اللَّه قياس الأشباه، و يسميه أكثر الفقهاء قياس الطرد، و دلت هذه الآية على صحته لأنه لما ثبت بالدليل أن المراد من قوله: فَرُدُّوهُ هو أنه ردوه إلى شبيهه علمنا أن الأصل المعول عليه في باب القياس محض المشابهة، و هذا بحث فيه طول، و مرادنا بيان كيفية استنباط المسائل من الآيات، فأما الاستقصاء فيها فمذكور في سائر الكتب.

الفرع الثاني: دلت الآية على أن شرط الاستدلال بالقياس في المسألة أن لا يكون فيها نص من الكتاب و السنة لأن قوله: فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ مشعر بهذا الاشتراط.

الفرع الثالث: دلت الآية على أنه إذا لم يوجد في الواقعة نص من الكتاب و السنة و الإجماع جاز استعمال القياس فيه كيف كان، و بطل به قول من قال: لا يجوز استعمال القياس في الكفارات/ و الحدود

و غيرهما، لأن قوله: فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ عام في كل واقعة لا نص فيها. (السابق ج١٠، ص: ص١٤٧ وبعدها).

الفرع الرابع: دلت الآية على أن من أثبت الحكم في صورة بالقياس فلا بد و أن يقيسه على صورة ثبت الحكم فيها بالنص، و لا يجوز أن يقيسه على صورة ثبت الحكم فيها بالقياس لأن قوله: فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ ظاهره مشعر بأنه يجب رده إلى الحكم الذي ثبت بنص اللَّه و نص رسوله.

الفرع الخامس: دلت الآية على أن القياس على الأصل الذي ثبت حكمه بالقرآن، و القياس على الأصل الذي ثبت حكمه بالسنة إذا تعارضا كان القياس على القرآن مقدما على القياس على الخبر لأنه تعالى قدم الكتاب على السنة في قوله: أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ و في قوله: فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ و كذلك في خبر معاذ.

الفرع السادس: دلت الآية على أنه إذا تعارض قياسان أحدهما تأيد بإيماء في كتاب اللَّه و الآخر تأيد بإيماء خبر من أخبار رسول اللَّه، فإن الأول مقدم على الثاني، يعني كما ذكرناه في الفرع الخامس، فهذه المسائل الأصولية استنبطناها من هذه الآية في أقل من ساعتين، و لعل الإنسان إذا استعمل الفكر على الاستقصاء أمكنه استنباط أكثر مسائل أصول الفقه من هذه الآية.

المسألة الثالثة عشرة: قوله: وَ أُولِي الْأَمْرِ معناه ذوو الأمر و أولو جمع، و واحده ذو على غير القياس، كالنساء و الإبل و الخيل، كلها أسماء للجمع و لا واحد له في اللفظ.

المسألة الرابعة عشرة: قوله: فَإِنْ تَنازَعْتُمْ قال الزجاج: اختلفتم و قال كل فريق: القول قولي و اشتقاق المنازعة من النزع الذي هو الجذب، و المنازعة عبارة عن مجاذبة كل واحد من الخصمين لحجة مصححة لقوله، أو محاولة جذب قوله و نزعه إياه عما يفسده.

ثم قال تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ و فيه مسألتان:

المسألة الأولى: هذا الوعيد يحتمل أن يكون عائدا إلى قوله: أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ و إلى قوله:

فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ و اللَّه أعلم.

المسألة الثانية: ظاهر قوله: إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ يقتضي أن من لم يطع اللَّه و الرسول لا يكون مؤمنا، و هذا يقتضي أن يخرج المذنب عن الايمان لكنه محمول على التهديد.

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي ذلك الذي أمرتكم به في هذه الآية خير لكم و أحسن عاقبة لكم لأن التأويل عبارة عما اليه مآل الشيء و مرجعه و عاقبته (تفسيرالكبير، ج١٠، ص: ١٤٦وبعد).

موقف ايجابى ومؤيد من الرازى حول عترة رسول الله:

قال الفخر الرازى في تفسير هذه الآية ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [سورة الأنعام: ٨٥]:

«انها تدل على أن الحسن والحسين من ذرية رسول اللهﷺ لأن الله تعالى جعل عيسى من ذرية ابراهيم، مع أنه لاينتسب إلى ابراهيم الإ بالأم، فكذلك الحسن والحسين من ذرية رسول الله، وإن كان انتسبا إليه بالأم... ويقال: إن أبا جعفر الباقر استدل بهذه الآية عند الحجاج ابن يوسف»[٨٢].

وذكر الآلوسى في تفسير روح المعانى في تفسير هذه الآية: «.. والذاهبون إلى دخول البنت في الذرية يستدلون بهذه الآية وبها احتج موسى الكاظمرضي الله عنه احتج على ما رواه البعض عن الرشيد[٨٣].

ويضيف الآلوسى في ختم كلامه لهذا الشأن: «وفي التفسير الكبير إن أبا جعفر رضى الله تعالى عنه استدل بها على الحجاج بن يوسف وبآية المباهلة حيث الحسن والحسين رضى الله تعالى عنهما بعدما نزل «تعالوا ندع ابنائنا وأبنائكم»[٨٤].

(٨٢) تفسير الكبير، ج١٣، ص٦٦؛ راجع تفسير الكاشف، لمحمد جواد مغنية، ج٣ الناشر دار الكتاب الاسلامى، الطبعة الثالثة، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، ص٢١٩.

(٨٣) روح المعانى في تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى، للآلوسى -البغدادى -، الجزء السابع، دار احياء التراث العربى بيروت -لبنان -ص٢١٣هـ.

(٨٤) روح المعانى للآلوسى، الجزء السابع، السابق، ص٢١٣-٢١٤.

آية التطهير والعصمة في تفسير الكبير:

نقلنا في هذه الدراسة حول آية التطهير روايات من الفريقين سنة وشيعة عن أم المؤمنين عائشة وأم المؤمنين ام سلمة وصفية[٨٥] والصحابى وغيرهم وتفاسير حول الآية من تفاسير ابن جرير والدر المنثور للسيوطى وغيرها، بأن رسول الله ﷺ قال بأن هذه الآية «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً»نزلت في شأن أهل الكساء ومن جملة هذه الأحاديث هى: «أن رسول الله ﷺ أدنى عليا وفاطمة وأجلس حسنا وحسينا كل واحد منهما على فخذه». الحديث[٨٦].

و بأن النبى قال: «اللهم هولاء آلى فصل على محمد وآل محمد».

وفي رواية أم -المؤمنين عائشة: أن الكساء كان -مرطاً مرحلاً من شعرأسود»[٨٧].

والآن نشير إلى ما طرحه الفخر الرازى في تفسره حول الآيات التى وردت في سورة الأحزاب من٣٢ إلى ٣٥ فنختتم البحث حول آية ٣٣.

ذكر الإمام الرازى كعادته التفاسير والأقول والاحتمالات ونقدهاحول الموضوع مفصلاً نركز حول تفسيره وفي آية التطهير واليكم بيانه:

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴾ [سورة الأحزاب: ٣٢].

ثم قال تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ لما ذكر أن عذابهن ضعف عذاب غيرهن و أجرهن مثلا أجر غيرهن صرن كالحرائر بالنسبة إلى الإماء، فقال: لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ و معنى قول القائل ليس فلان كآحاد الناس، يعني ليس فيه مجرد كونه إنسانا، بل وصف أخص

(٨٥) صحيح مسلم٧/ ١٣٠، باب فضائل أهل بيت النبى. ومستدرك الصحيحين ٣/ ١٤٧.

(٨٦) سنن البيهقى ٢/ ١٥٢، ورواية اخرى منه بمسند أحمد٤/ ١٠٧.

(٨٧) صحيح مسلم ٧/ ١٣٠، باب فضائل أهل بيت النبى. ومستدرك الصحيحين ٣/ ١٤٧.

موجود فيه، و هو كونه عالما أو عاملا أو نسيبا أو حسيبا، فإن الوصف الأخص إذا وجد لا يبقى التعريف بالأعم، فإن من عرف رجلا و لم يعرف منه غير كونه رجلا يقول رأيت رجلا فإن عرف علمه يقول رأيت زيدا أو عمرا، فكذلك قوله تعالى: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾ يعني فيكن غير ذلك أمر لا يوجد في غيركن و هو كونكن أمهات جميع المؤمنين و زوجات خير المرسلين، و كما أن محمداﷺ ليس كأحد من الرجال، كما قالﷺ: «لست كأحدكم».

كذلك قرائبه اللاتي يشرفن به و بين الزوجين نوع من الكفاءة(٨٨).

ثم قوله تعالى: ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ يحتمل وجهين أحدهما: أن يكون متعلقا بما قبله على معنى لستن كأحد إن اتقيتن فإن الأكرم عند اللّه هو الأتقى و ثانيهما: أن يكون متعلقا بما بعده على معنى إن اتقيتن فلا تخضعن و اللّه تعالى لما منعهن من الفاحشة و هي الفعل القبيح منعهن من مقدماتها و هي المحادثة مع الرجال و الانقياد في الكلام للفاسق. ثم قوله تعالى: فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ أي فسق و قوله تعالى:

﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أي ذكر اللّه، و ما تحتجن إليه من الكلام و اللّه تعالى لما قال: فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ذكر بعده وَ قُلْنَ إشارة إلى أن ذلك ليس أمرا بالإيذاء و المنكر بل القول المعروف و عند الحاجة هو المأمور به لا غيره. ثم قال تعالى:

سورة الأحزاب (٣٣):

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ من القرار و إسقاط أحد حرفي التضعيف كما قال تعالى: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [سورة الواقعة: ٦٥] و قيل بأنه من الوقار كما يقال وعد يعد عد و قول: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ قيل معناه لا تتكسرن و لا تتغنجن، و يحتمل أن يكون المراد لا تظهرن زينتكن و قوله تعالى: ﴿الْجَاهِلِيَّةِ

(٨٨) التفسير الكبيرللرازى، ج ٢٥، ص٢٠٨.

﴿ ٱلْأُولَىٰ ﴾ فيه وجهان أحدهما: أن المراد من كان في زمن نوح و الجاهلية الأخرى من كان بعده و ثانيهما: أن هذه ليست أولى تقتضي أخرى بل معناه تبرج الجاهلية القديمة كقول القائل: أين الأكاسرة الجبابرة الأولى[٨٩].

ثم قال تعالى: ﴿ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ يعني ليس التكليف في النهي فقط حتى يحصل بقوله تعالى: فَلا تَخْضَعْنَ، و لا تَبَرَّجْنَ بل فيه و في الأوامر فأَقِمْنَ الصَّلاةَ التي هي ترك التشبه بالجبار المتكبر وَ آتِينَ الزَّكاةَ التي هي تشبه بالكريم الرحيم وَ أَطِعْنَ اللَّهَ أي ليس التكليف منحصرا في المذكور بل كل ما أمر الله به فأتين به وكل ما نهى الله عنه فانتهين عنه»[٩٠].

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾.

يعني ليس المنتفع بتكليفكن هو الله و لا تنفعن الله فيما تأتين به. و إنما نفعه لكن و أمره تعالى إياكن لمصلحتكن، و قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ ﴾ فيه لطيفة و هي أن الرجس قد يزول عينا و لا يطهر المحل فقوله تعالى: ﴿ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ ﴾ أي يزيل عنكم الذنوب و يطهركم أى يلبسكم خلع الكرامة»،[٩١] ثم قال الرازى: «إن الله تعالى ترك خطاب المؤنثات و خاطب بخطاب المذكرين بقوله: لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ ليدخل فيه نساء أهل بيته و رجالهم، و اختلفت الأقوال في أهل البيت، و الأولى أن يقال هم أولاده و أزواجه و الحسن و الحسين منهم و علي منهم لأنه كان من أهل بيته بسبب معاشرته ببنت النبي ﷺ و ملازمته للنبي»[٩٢].

نقول: إن تغيير الخطاب من مؤنث إلى مذكر (ووصف الخاص لهن –حسب تعبيرالرازى ولهم (أهل البيت) تؤكد إلى حكمة وهى أن أهل البيت غير نساء النبى وإلا لايحتاج إلى تغييرالضميرمن خطاب

(٨٩) السابق.
(٩٠) السابق، ص٢٠٩.
(٩١) التفسير الكبير للرازى، ج٢٥، ص ٢٠٩.
(٩٢) المصدر السابق.

التأنيث إلى التذكير. أما أنه هل نساء النبى هن من أهل البيت أملا؟. يظهر واضحا مما نقلتها ام سلمة زوجة النبىﷺ أنها صرحت بأن النبى قال لها -عند سئوالها وهى واقفة بباب البيت -بأنها ليست من أهل البيت، وهى نص كلام ام سلمة: قالت: «قلت: يارسول الله ألست من أهل البيت؟. قال: إنك إلى خير. إنك من أزواج النبي»[٩٣].

كما نفهم واضحاً من تفاوت لحن الخطاب القرانى لأزواج النبىﷺ بالنسبة لأهل البيتﷺ؛ كما قرأنا في الآية وكما اشرنا في بدايات هذه الدراسة؛ بأن نساء النبى خاطبن بلحن التحذيرعلى رعاية التقوا وعدم التبرج (تبرج الجاهليه) والقرن في بيوتهن (وكأن النبى يخبرعن خروج احدهن للقتال مع على كما حدث في حرب الجمل) فتحذرهن الآية مكان المدح والتحسين ولكن بعد تذكير الضمير تغيرت خطاب الآية حيث يجعل هولاء الخمسه مطهرا من الرجس. و اثبات الطهارة هى العصمة كما اكدعليه نساء النبى انفسهن وكما ورد في مسند ابن حنبل وصحيح مسلم وأبى داود أن رسول اللهﷺ كان ذات يوم نائما في حجرة ام سلمة، فدخل الحسنان وجلساعنده، فجائت فاطمة فجاء على فجلسا عنده، ولما استيقظ ورآهم مجتمعين فرح، فأجلس الحسنين على حجره، وقرب عليا وفاطمة إلى نفسه بحيث اتصلا به، فألقى عباءة الخيبرية عليهم وقال: «اللهم إن لكل نبى أهل بيت، وهولاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا»، فنزل جبرئيل بهذه الآية[٩٤].

اهم المصادر:

القرآن الكريم.

١. نهج البلاغة.

٢. الأعلمي، حسين، كتاب ألفين، موسسه الاعلمى، الطبعة الثالثه، ١٤٠٢.

٣. جوادى آملى، عبد الله، تفسير تسنيم، نشر اسراء، طبع ٢، ١٣٨٩.

(٩٣) رواية ام سلمة في تفسير الآية بتفسير السيوطى ٥/ ١٩٨و١٩٩.

(٩٤) البراهين القاطعة في شرح تجريد العقائد الساطعة، ج٣، ص٢٥٥.

٤. جوادی آملی، عبد الله، همتایی قرآن و اهل بیت، نشر اسراء، طبع ٣، ١٣٩١هـ. ش.
٥. حمیدی، قاسم، چگونگی اثبات عصمت اهل بیت با توجه به معنای رجس در آیه تطهیر، قم، ١٣٩٦.
٦. الحلي، كشف المراد في شرح الاعتقاد، المعلق جعفر السبحانی، الطبعة الاولی، نشر موسسه الامام الصادق عليه السلام، ١٣٧٥ هـ. ش.
٧. الخمیس، محمد بن عبد الرحمن، اصول الدين عند الامام ابی حنيفه، المكتبه العربيه الصعوديه، ١٤١٦.
٨. زين العابدين، عبد السلام، مراجعات في عصمه الانبياء من منظور قرآنی، الطبعه الرابعه، ١٤٢٢.
٩. السبحانی، جعفر، بحوث في الملل و النحل، الطبعة الثانيه، موسسه نشر الاسلامی بقم، ١٤١٥.
١٠. السبحانی، جعفر، محاضرات في الاهيات، تحقيق الشيخ علی ربانی، موسسه الامام الصادق عليه السلام، ١٤٢٢.
١١. السبحانی، جعفر، المناهج التفسيريه في علوم القرآن، الطبعة الثانيه، موسسه الامام الصادق عليه السلام، ١٤٢٢.
١٢. سروش، عبد الكريم، بسط تجربه نبوی، موسسه فرهنگی صراط، تهران، ١٣٧٨.
١٣. الطباطبائي، السيد محمد حسين، تفسير الميزان، مكتبه الاعلام الاسلامی بقم، ١٣٨٦ هـ. ش.
١٤. العكبری البغدادی، ابو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان، تصحيح الاعتقاد، مطبعه مهر ايران، ١٤١٣.
١٥. العسكری، السيد مرتضی، معالم المدرستين، الطبعه الاولی، ١٤١٧.
١٦. علوی مهر، حسين، المدخل الی تاريخ تفسير و المفسرون، تعريب جعفر الخزاعی، قم، ١٣٩٢ هـ. ش.
١٧. القاضی عبد الجبار، شرح اصول الخمسه، بيروت، دار احياء التراث، ١٣٨٥ هـ ق.
١٨. مصطفوی، حسن، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، تهران، انتشارات وزارت فرهنگ و ارشاد اسلامی، ١٣٩٥.